وثيقة المدينة
الدولة طبيعتها ووظائفها

أ . م . د . مهدية صالح ألعبيدي(*)

المقدمة :

شكلت هجرة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الى يثرب منعطفاً جديداً ، في صيرورة وبناء نواة دولة الإسلام، الذي لم يشكل انفصالا كلياً عن المسيرة السابقة للنبي الكريم عندما كان في مكة المكرمة أي فكانت امتداداً لما سبقها، لكنها كانت في المقابل بداية عملية جديدة لكل حادثة تقع في الدولة الفتية يتم حسمها بحسب الشريعة الإلهية التي لم يكن لها وكيل سوى الرسول الاكرم. وظهر هذا جلياً في القرأن الكريم، وهذه تمخض عنها كيان يتحكم بالاوضاع في المدينة.

والسؤال الذي يطرح هنا هو، هل ان الاعمال التي قام بها الرسول الكريم في المدينة المنورة بعد الهجرة اليها افضت الى قيام كيان سياسي مؤسسي؟ وهل هذا الكيان يصح ان نطلق عليه الدولة المتعارف عليه؟

وهنا لابد ان نذكر اولاً انه ليس من المنطقي ان نستدعي ما كان قائما انذاك لنقيس على ماهو موجود حالياً. ا وان نقارن دولة المدينة الفتية التي انبثقت في يثرب بعيد هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. اليها بالدولة الحديثة والمعاصرة، كما انه من الخطأ مقارنة او الحكم على فشل او نجاح حضارة ما بمقياس(النجاح) الذي حققته حضارة اخرى. لكن بامكاننا القول ان لا تماثل المؤسسات بمعناها الحديث في الدولة الاسلامية لا يعني اطلاقا ان هذه الدولة لم تخلق لنفسها مؤسسات خاصة بها برهنت على مر الايام انها كانت مبعثاً لقيام الدولة الاسلامية.

فالسياسية في هذه الدولة كانت تجد مبررها وشرعيتها في الدين أي اضفاء الطابع الديني على السياسي، اذ جاءت الرسالة المحمدية بميلاد نظام جديد، لم يعهده العرب من قبل حيث كان النظام القبلي الذي ينهض به رؤساء القبائل وشيوخها وكبار القوم هو السائد .

(*) **كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد.**

واصبح الرسول يتولى السلطات الثلاث،القضائية ، والتنفيذية ، والتشريعية ويتمثل نظام الحكم أي السلطة في دولة المدينة الفتية، بنظام تتراتب قواه في تسلسل هرمي جديد يبدأ من القمة بشخص قائد الجماعة والامة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) وينتهي هذا النظام بعامة المؤمنين الداخلين تحت ظلال الاسلام، مروراً بكيان سياسي تماسس بالعرف والعادة او بالتشريع الديني القانوني يشغله الصحابة والامراء على الفتوح والبلدان ومن ولاهم النبي أمر القضاء في البلاد المفتوحة وقادة الجيش واهل السابقة في الاسلام. وتعد دولة المدينة اول مظهر من مظاهر الدولة في التنظيم والمؤسسات والقيادة الروحية، بعد ان كانت الحياة القبلية هي السائدة قبل بدء الدعوه المحمدية حيث لم تعرف قبائل الجزيرة العربية مركزية للسلطة ولا استقرارها وروحها السائدة، استطاع الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بعبقريته وقيادته الفذة والفريدة ان يكون من تلك القبائل المتناحرة المتحفزة غير المستقرة امة عظيمة .

ان الاسلام لم يكن همه اقامة دولة والا لما كان دينا، ولغلبت المصالح الدنيوية على مشاغله الرسالية الروحية، غير ان الدولة كانت احد منتجاته الجانبية والحتمية. والدولة لم يكن لها تلك القيمة الايجابية في البواكير الاولى للاسلام، ولم تكن في الاسلام التأريخي القيمة التي تعطى لها اليوم. لانها غدت اليوم مهمشة للدين وخلقت ايديولوجيا بديلة عنه تجسد الصراع على المصالح الدنيوية والمنافع.[١]

واليوم واذ نحن نبحث في (وثيقة المدينة) فانه من الصعوبة بمكان الكتابة عن هذا الحدث البارز والمفصلي في حياة العرب والمسلمين، دون البناء على معطيات باعتماد كتب السيرة النبوية ومصادر قديمة وحديثة، فكان لا بد من الرجوع الى التأريخ لكي نطلع على اوضاع العرب السياسية والاجتماعية قبل الاسلام، وهل نجحوا في اقامة دول، كما يرى البعض فيما ينفي اخرون ذلك ، حيث يرى الفريق الثاني ان الصحراء غير مؤهلة لبناء الدول متجاهلين ان تلك الصحارى كانت مليئة بالواحات وعيون الماء، أي انها كانت تحتضن تجمعات اجتماعية كبيرة فضلاً عن نشوء مراكز تجارية في مدنها المهمة. كما ان الدول التي اقيمت في جنوب الجزيرة لا سيما في اليمن (معين– قتبان– سبأ– حمير) من ١٣٠٠ ق .م – ٥٢٧م) يؤكد على نشأة تلك الكيانات، كانت بفعل العمل الجماعي لاستغلال مياه الامطار الموسمية، وبناء السدود والخزانات لاستغلالها ك(

سد مأرب) أي ان كل ذلك لم يكن بفعل قبائل بدوية كما يدعي البعض فنشأت الزراعة على الجهد البشري اولا من ثم جاء دور التجارة والصناعات اليدوية.[٢]

ويبدو من استقراء تاريخ تلك الكيانات السياسية، انها تتمتع بكل مواصفات الدول واسسها. وهنا لابد من الاشارة الى ان مصطلح الدولة العربي يفتقر الى (المفهوم التجريدي) للدولة فهو يختلف بدرجة نوعية عن المفهوم الكلاسيكي التأريخي للدولة. أي ان الدولة المؤسسية الكيانية والسيادية بمعناها الحديث لم يكن معروفاً ليس للعرب وحدهم وانما بالنسبة للاقوام الاخرى، الا في العصر الحديث.

وكما سبق ذكره انه بعد تدهور الوضع الزراعي حلت محله التجارة لا سيما تجارة العطور والصناعات اليدوية سيطرة دول جنوب الجزيرة على النقاط الاستراتيجية للتجارة براً وبحراً، مما خلق طبقة من التجار وشمل نفوذ هذه الدول كل اليمن وامتد شرق سيناء واضمحلت التأثيرات القبلية على الساحة وسادت الملكية الوراثية [٣]

واتسمت دول الجنوب لا سيما الدولة السبأيه بكل مواصفات الدولة من حيث الارض والسكان والسيادة وان حكامها يمثلون مملكة علمانية بعد ان تخلوا عن الالقاب الدينية تماما، ولقبوا بالملوك مثل بلقيس التي ورد ذكرها في القرأن الكريم(اني وجدت امرأة تملكهم، واوتيت من كل شي ولها عرش عظيم)[٤] وقد ظل مصطلح(مملكة) و (ممالك معبراً عنه في الاستعمال السياسي العربي عن مفهوم الدولة) بمعناها الاعم والاشمل من حيث هي كيان عام ومؤسسة شاملة. وبصرف النظر عن نظامها السياسي، حتى اواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، إلا ان المصطلح قد تم توضيحه ليأخذ معناه المتعارف عليه فأطلق على الدولة، للدلالة العامة على جميع اصناف الدولة ملكية كانت ام غير ذلك.[٥]ولم يقتصر وجود الكيانات السياسية والممالك على جنوب الجزيرة العربية فحسب، وانما قامت في شمال الجزيرة امارات، كأمارة الحيانيين. وكنده، والانباط، وتدمر، والغساسنة والمناذرة.. وفي الحجاز شهدت هذه البلاد وجود ثلاثة مجتمعات اساسية في يثرب والطائف ومكة. واغلب هذه الكيانات برزت لوقوعها على الطريق التجاري البري لا سيما مكة والذي يبدأ من اليمن جنوباً الى غزة شمالاً وكانت مكة اشهر التجمعات الثلاثة باعتبارها مركزاً تجارياً فضلاً عن مركزها الديني .

وسيتم تناول هذا الموضوع وفقاً للمحاور التالية :-

اولاً : الوثيقة ... والدولة المدينية .

ثانياً : طبيعة السلطة .

ثالثاً : وظائف الدولة .

المحور الاول : ((الوثيقة ..... والدولة المدينية))

وبعد هذه المقدمة التأريخية والعودة الى دولة المدينة،التي اقيم بموجبها نظام بينت فيه القواعد التي يلتزم فيها الرسول في ممارسة السلطة والوسائلو الشروط التي يجب الالتزام بها من الافراد ان الدولة التي اقامها الرسول الكريم ودستورها تعد الاساس للمارسة السلطة في الدولة الحديثة .كما ان هذه الصحيفة عالجت معظم المسائل الدستورية لبيان شكل الحكم ، وسلطات الدولة والسيادة فيها وحقوق الدولة على الافراد وحقوقهم على الدولة وغيرها من المسائل الاخرى وهذه الدولة التي اقامها رسولنا الكريم تختلف اختلاف جذرياً عن المفاهيم الغربية التي سادت في مابعد لا سيما ماذهب اليه المفكر الانكليزي توماس هوبز (ان الدولة رجل صناعي صنعه البشر بغية التوصل الى السلام، كما صنعوا سلاسل اصطناعية تدعى القوانين المدنية).[٦]

لان ما اراده المفكر الانكليزي ان سلطة الدولة بشرية مطلقة وحاكم الدولة مطلق الصلاحيات وليس هناك ما يحد من هذه الصلاحيات، أي انه بوسع الحاكم المطلق فعل أي شئ تجاه أي فرد مهما كان التبرير، الذي يسمى بالمعنى الحقيقي بالظلم او الضرر.[٧] فهذه الدولة المدينية التي انشأت في المدينة هي كيان سياسي روحي اخلاقي وهي غير ما ذهب اليه هيغل ايضاً بانكاره المعيار الاخلاقي لتصرفات الدولة والتي قال عنها أي (الدولة) بانها وعي العقل المطلق المتيقن الذي لا يعترف بسلطة عدا سلطته، ولا يقر أي قواعد مجردة للخير والشر.. فهي بالنسبة له سيادة النبلاء أي انه ينكر حق المواطن واستبعاد اغلبية البشر من القدرة على ان يصبحوا كائنات اخلاقية، بعكس ذلك كانت دولة المدينة تقوم على سواعد وايمان الفقراء الذين نصروا هذا الدين ونصروا نبيهم[٨].

وليس من المبالغة القول بان الرسول الكريم حال وصوله الى المدينة المنورة شرع في بناء دولة ذات سلطة روحية متمثلة بقيادته لها وتسلمه صلاحيات السلطة فيها. وقد اتضحت اولى ارهاصات تلك الصلاحيات في الوثيقة التي كتبها الرسول الكريم، تدور في اغلبها

حول تنظيم الحياة في مجتمع المدينة. وعدت وثيقة المدينة اول وثيقة دستورية مدونة في تاريخ العالم، وليس كما يقال ان اول مدونة دستورية كانت دستور فيلادليفيا عام ١٧٨٧م ومن ثم الدستور الملكي الفرنسي عام ١٧٩١م وهو اول دستور فرنسي مكتوب، فدستور المدينة كتب قبل ذلك باكثر من عشرة قرون.

وتنظم هذه الوثيقة شكل الدولة، وحقوق الحاكم، واختصاصاته وحقوق الافراد وحدود حرياتهم تنظيماً مفصلاً ودقيقاً. لقد وضع الرسول الكريم الاسس الرصينة لقواعد المجتمع الاسلامي الجديد بأقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين مهاجرين وانصار. فضلا عن اليهود الذين افردت الوثيقة لهم فيها عدة فقرات عن حقوقهم وكيفية التعامل معهم والمطلوب منهم ازاء المجتمع الجديد الذي قام على الاسلام . وقام الرسول الكريم بترتيب امور المجتمع السياسي الاسلامي في المدينة.

وعند البحث الدقيق يتبين ان دولة المدينة النبوية هي اول دولة تأريخيا اخضعت نفسها سلطة وافراداً للقانون، ومارس فيها الحاكم السلطة وفقاً لدستور مدون في وقت كان العالم كله لايعرف خضوع السلطة للقانون وتقييدها. بل يعرف خضوع الافراد بعضهم لبعض دون ان تضع اية قيود او قواعد على السلطة نفسها لحماية حقوق الافراد وحرياتهم حيث كان الحاكم يعد نفسه الهاً او منفذاً للمشيئة الالهية أي مطلق السلطة .

((الأمن والسلم الاجتماعي))

تطالعنا المصادر التأريخية الوثائقية بان اول عمل قام به الرسول الكريم بعد بناء مسجده الكريم هو ضمان الامن والسلام، وضمان تنظيم المدينة على وفاق واحد بما في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم ملئ بالتعصب والمغالاة في الاحساب والانساب.[٩] وعقد معاهدة مع يهود المدينة من (بني النظير – وقينقاع وقريظة) على ان لا يعتدوا على المسلمين ولايوالوا اعدائهم او يشاركوا في حروب خارج او داخل المدينة، وان يحترم المسلمون دينهم ويحفظون دمائهم ولم يتجه الرسول الى سياسية الابعاد او المصادرة والخصام ضدهم .

ان العقد السياسي الذي اتت به(الصحيفة) عبر عنه بشكل دستور او (ميثاق) سياسي يؤسس مبكراً لعلاقة الاشتراك في الموطن لا في الدين الا ان ((دولة المدينة)) كانت في المطاف الاخير دولة مسلمين (وليس بالضرورة دولة اسلامية) ثم تحولت

بعد ذلك الى دولة اسلامية سريعاً لاسباب عدة اوردتها كتب السير والطبقات. [١٠] ومنها نقض الميثاق بين النبي ويهود بني قريظة وبني القينقاع وبني النظير الذي بلغ ذروته في المعارك التي خاضها المسلمون مع اليهود والتصفية الشاملة لوجودهم في المدينة في معركة خيبر. لا سيما بعد نقض اليهود للمواثيق التي ابرموها مع الرسول الكريم وتأمرهم على حياته وبعد اعادة جماعة المسلمين تأسيس الاجتماع الديني للمسلمين الذي كان في مكة الى صورة اجتماع سياسي وديني وقيادة النبي العظيم بوصفها قيادة دينية روحية وسياسية أي ان الدولة الاسلامية هي ذات رسالة ايمانية ومشروع سياسي غير منفصل .

فالدولة الفتية تسعى الى خدمة الاهداف السامية للمجتمع وحمايتها وضمان حقوقهم العادلة وهذا ما قامت به دولة المدينة واقرته ونستطيع ان نتبين ذلك من قراءة بنود المدونة الدستورية التي اصدرها الرسول الاكرم للقيام بشؤون المجتمع.

لقد اصبح النبي صلى الله عليه وسلم ما بين الاوس والخزرج من سكان يثرب في حكمة بالغة واذ ارسل اليهم مصعب ابن عمير ليقيم لهم الصلاة قبل الهجرة، بعد ان كانوا يختلفون في ما بينهم على ذلك، فجمعت بينهم الصلاة في اخوة وزالت ما بينهم من شقاق، وظل الاوس والخزرج على ذلك لعامين قبل ان يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقد كانت هذه المدة كافية لنزع الشقاق فيما بينهم.[١١]

ولما قدم الرسول الكريم المدينة اخى بين المهاجرين والانصار في دار انس بن مالك، اخى بينهم على الحق والمواساة والتوارث بعد الممات دون ذوي الارحام ثم نسخ ذلك وانقطعت المؤاخاة في الميراث ورجع كل انسان الى نسبه وورثته وذو رحمه.[١٢] والمؤاخاة هي تذويب عصبيات الجاهلية فلا حمية الا للاسلام وان تسقط فوارق النسب واللون والوطن فلا يتقدم احد او يتأخر الا بمروءته وتقواه . وجعل الرسول الكريم هذه الاخوة عقدا نافذاً، لا لفظاً فارغاً وعملا يرتبط بالدماء والاموال وكانت عواطف الايثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الاخوة وتملأ المجتمع الجديد باروع الامثال وكانت المؤاخاة حكمة فذة وسياسة صائبة حكيمة وحلا رائعاً لكثير من المشاكل التي يواجهها المسلمون.[١٣]

المحور الثاني : طبيعة السلطة

ان بغيتنا هنا إننا لا نريد ان نضع علامات فارقة او غير عادية على الدولة الفتية الاسلامية ، لكن الذي نريد ان نصل اليه هو ان هذه الدولة قد استكملت مستلزمات الدولة من حيث الارض والسكان والقيادة والسيادة والدستور (الوثيقة) لقد خلقت بالاسلام دولة بشرية تظللها العقيدة السمحاء والاسلام يشكل بنظر المسلمين الاطار الذي يستقر فيه نهائيا توازن اصالة الروح وتحقيق اقصى ما يمكن ان يدركه العقل البشري ، وبعيداً عن التعسف اذا اطلق على هذا الكيان السياسي الجديد الذي تأسس في هذه الارض تسمية الدولة، اذ ان كل عناصرها متوفرة من وطن (ارض المدينة وما جاورها) وسيادة المسلمين على هذه الارض، ومن السكان او ما نطلق عليه حالياً بالشعب الذي اطلقت عليه تسمية (الامة) وهي توصيف للجماعة الدينية والسياسية، الامة التي شكلت النسيج السياسي لهؤلاء المواطنين . فالدين شكل اللحمة الاساسية لتلك الامة المتميزة بالايمان، والتي وعدت بالجنة جراء ذلك التميز .كانت في البداية وحدة عقيدية ايمانية ، وهي الضابط لعلاقات اجتماعها السياسي أي انها امة تنتمي لكيان سياسي واحد.ونظام سياسي يطابق شخصيتها الاممية (العالمية) [١٤] فالهجرة كانت للتخلص اولا من اذى المشركين وكسب الانصار ونشر الدعوة ثانياً ، والتقدم في بناء جماعة اعتقادية متماسكة وقوية ومنتشرة وهنا بدأت الدعوة والجماعة بالتحول من جماعة اعتقادية– كما سبق ان ذكره – اعتقادية الى جماعة سياسية ودينية .

وفي المدينة برز النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) وكأنه زعيم دولة ، فحتى السور التي نزلت عليه في المدينة كانت اكثر طولا واكثر تركيزاً على مشكلات الحياة الاجتماعية الدنيوية وكانت غاية الرسول الكريم ان يجعل عيش المهاجرين في المدينة كريماً وامينا فضلا على السهر لتثبيت الدين الجديد بعد ان ضاق المسلمون ذرعاً بقريش التي سخرت منهم وطعنت بالرسالة الجديدة لانها كانت تخشى ان تطيح بمؤسساتها. ومن العناصر الدالة على وجود هذه الدولة الفتية ايضاً هو بروز القيادة وبناء النظام الاداري والسياسي . الذي يقوده النبي صلى الله عليه وسلم . واصبح دوره يتجلى في القيادة السياسية والعسكرية ، يمارس السلطة ويصدر القرارات ويقود الجيوش وهذه افعال سلطوية لا تنسب الى السلطة النبوية . أي ان الذي يقوم بها هو ليس رجل سياسة ودولة فحسب بل نبي مرسل كما برزت في هذه المدة في المدينة نخبة جديدة من القادة الميدانين

وظهرت من السياسيين ممن كان لهم صلة بالرسول اما لسبقهم في الاسلام ، او لقرابتهم من النبي او لمركزهم في قريش او لتضحياتهم في سبيل الاسلام وهم من اطلق عليهم بالصحابة لمصاحبتهم للنبي الكريم . والتي مكنتهم من المشاركة السياسية والإدارية ومن خلال الخبرة التي استقرؤها من النبي الكريم . وقد شاركت هذه النخبة في الرأي وفي اتخاذ القرارات أي المشاورة، حيث استشارهم النبي في مواضع متعددة ، فكانت بحق اول نخبة سياسية في الاسلام . وكان بعضهم ينوب عن الرسول في المدينة اثناء خروجه الى الغزوات وقيادة الحرب والسريا والعلاقات خارج المدينة . والقضاء وجباية الزكاة والجزية والكتابة (كتابة الوحي) والعقود والعهود والمراسلات ثم اقامة الصلاة والحج .

والاستخلاف او الانابة عن الرسول هو من علامات السلطان السياسي في تجربة المدينة ، انه التعبير عن استمرارية الدولة . في حال غياب قائدها. او هو تعبير عن تجريد ما للسياسة والسلطان بوصفهما نصاباً عاما لا يرتبط بشخص النبي الكريم حصراً بل بجماعة المسلمين عامة[١٦] فكان هناك تداخل بين الديني والسياسي بحضرة وجود النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) ومن جاء من بعده من الخلفاء، هم خلفاء له في السياسة (في القيادة) لا في الدين لانه وحده صاحب الرسالة وهو وحده يوحى له وكل الذين أعقبوهم هم في حكم المسلمين حكموا باسم الدين ولم يحكموا بالدين ، أي التماس الشرعية الدينية لسياسة قد لأتكون دينية [١٧].

فالدولة هي من حيث طبيعتها دولة توافقية امتزج فيها الشأن الديني (الروحي) والسياسي (المادي) ومن الطبيعي ان تكون كل المبادرات الفردية والجماعية وكل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مؤطرة بالدين الاسلامي لكن هل خلقت هذه الدولة او كان من نتاجها خلق طبقة من رجال الدين كما هو الحال في اوربا قبيل الاصلاح الديني؟ والاجابة عن هذا التساؤل ان هذه الدولة الفتية ليس فيها طبقة رجال دين فليس هناك طبقة او فئة تمثل ظل الله في الارض او معاون للخالق سبحانه كما هو الحال في الغرب واتجه الجميع لبناء دولة سليمة القواعد والاسس ليس فيها مجال للتواكل او الهروب وانما تقوم على توازن بين الجانبين الروحي والحسي . وبمعنى اكثر قربا للحقيقة انه لم يكن هناك فصل بين البناء الروحي والبناء السياسي، وبعبارة اخرى لم يكن هناك لاي منهما مداه الخاص به، وانما امتزجا سوية فلم تكن هناك سلطة زمنية واخرى روحية فكان مسار (

دولة المدينة) هي حالة انصهار بين المسجد والمجتمع بعكس السلطة البابوية التي اظهرت من جانبها خصوصية دورها تجاه الامبراطور وابرزت المصدر الشعبي لسلطة الامير المتعارض مع الاصل الالهي، وحصر لسلطة البابا، وذلك لتقليص مصادر السلطة الزمنية ووضع حد لسلطة الامير[١٨].

واصبحت شخصية الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم تمثل مصدراً للتصرف المعياري لمعاصريه واسلافه وشكل ارتباط الافراد المسلمين بسنته السامية جزءا لا يتجزأ من البنية الاجتماعية الأساسية في الجزيرة سواء مع الاسلام او بدونه.[١٩] فالحس الذي كان يحمله الرسول الكريم هو حس الجماعة مع كل ما يقتضيه من تضامن متبادل بين افرادها . والخطأ الجسيم هو في شق وحدة هذه الجماعة (أي الامة) . من خلال عدم الجوء الى عمل مباغت وسريع لتغيير الاوضاع التي كانت سائدة في المجتمع وانما عمل بما من شأنه ان يخفف من شدة وطأة تلك الاوضاع ويفرض ما هو خليق بان يضمن العدالة .[٢٠] ويتضح من سيرة النبي الكريم بانه كان صاحب رسالة سماوية وباني دولة في وقت واحد ولكن اجهزة هذه الدولة كانت بطبيعة الحال لا تزال في حالتها الاولية غير ان المسألة الاساسية هي ان رجلا واحداً استطاع وللمرة الاولى في تاريخ الجزيرة العربية ان يفرض كلمته على جميع ابناء الجزيرة العربية .[٢١]

ان الدولة المدينية ، ومن خلال وجود النبي الكريم واقامة علاقات قائمة على اخوة العقيدة خلقت بنية داخلية قائمة على القانون المبني على روح العقيدة السمحاء . وكان الهدف الاساسي لدولة المدينة القائمة على الاسس العقيدية والسياسية هو لبناء الانسان والمجتمع على المثل والفضائل الاخلاقية [٢٢].

ان بناة الدولة العقائدية قد غرسوا قيماً عالية في كيفية بناء الدولة و كيفية تعامل هذا الجسد الواحد الذي يطلق عليه (الدولة) حكاما ومحكومين وليس لهؤلاء اية صفة قدسية ترفعهم عن المواطنين أي انها لم تكن دولة حكام وعبيد . وهذا ما وقع فعلا اذ ان سلطة الدولة الجديدة التي او جدها الاسلام قد فرضت نفسها على المجتمع لانها تمثل ارادة هي فوق ارادة البشر فالدين اصبح المنظم البنيوي الذي يوجه الشكل السياسي والاجتماعي والثقافي للمجتمع أي ان الدين اخذ يشكل او يتشكل في جميع البنى سواء اكانت تحتية او فوقية فاصبح العامل الديني جزء لا يتجزأ من انشطة وابنية مجتمع دولة المدينة وبعد ان

تغلغلت مبادئ هذا الدين في كل مفردات الحياة فاصبحت السلطة وحدة متماسكة غير قابلة على القسمة لان هدفها التأسيسي هو المحافظة على السلم والعدل اي ان الدين والحياة كلها محورها الاجتماع والمجتمع لا يتم بدون دولة .[٢٣]

فالصراع والتوتر بين القبائل والكيانات العربية السائد في السابق كان قد اثر بشكل سلبي على بنى الدولة وهياكلها وتقاليدها وتجاربها مما ساعد على عدم انطلاق مشروع دولة كبيرة واسعة النطاق كالدولة الاسلامية بعد مجئ الاسلام بل كان التكوين المجتمعي العربي ببناه القبلية المتعددة يمثل النقيض لبنية الدولة وسياقها ونموها المتدرج غير المتقطع[٢٤].

المحور الثالث : وظائف الدولة

اختلفت النظريات والرؤى في تحديد وظيفة وهدف الدولة فيرى بعضهم ان وظيفة الدولة حماية المجتمع من الفوضى ، وفرض العدل ، ورعاية مصالح المجتمع بأسره . فيما يرى اخرون ان هدفها ووظيفتها هو تأمين سيادة القانون والامن العام ، ونشر النظام وذهب اخرون الى ان هدف الدولة هو العمل على تحقيق الرفاهية .[٢٥]

والفكرة المثالية للدولة تعرفها وفقاً لوظيفتها ، حيث تذكر ان وظيفة الدولة هي ضمان الظروف الضرورية لافضل حياة للمجتمع . وعدها البعض تنظيماً للنهوض بسعادة الافراد، وسلطتها خاضعة لتحقيق هذا الهدف ، وقيمتها متأتية من انغماس الافراد في نشاطاتها .

وفي دولة المدينة كانت الوظائف مزدوجة روحية دعوية عقيدية . وغاية الرسول الكريم صنع الوحدة في الايمان.وتتطلب هذه الوحدة وضع دستور لتنظيم شؤون الدولة وممارسة السلطة وحقوق الحاكم ، واختصاصاته وحقوق الافراد وحرياتهم . وهذا ماظهر جلياً في الوثيقة المحمدية . انها وبدون موارية كانت مرتسماً لاقامة الكيان القانوني للهيئات الحاكمة في الدولة ، وكيفية ممارستها للسلطة ، والطرق التي تلزمها بعدم الخروج عن الاطار القانوني المحدد لها . والعقوبات الرادعة التي ان حصلت ازاء القائمين بالخروج عن الاطار القانوني المحدد في هذه المدونة (الوثيقة) والذي ان حصل معناه تقويض وهدم اسس الدولة. [٢٦]

وليس من الصعوبة ادراك ما انطوت عليه الوظائف السياسية وتجربة البناء السياسي من عقلانية في التخطيط وفي توزيع المهام المختلفة على من هم اهل للقيام بها ، وفي

انجاز هؤلاء لما انيط بهم من مسؤوليات بنجاح ، وهذه الوثيقة النبوية التي انطوت على ٤٧ بنداً قد نظمت ايضاً العلاقة مع الاقليات الدينية(اليهود) في المدينة بالاعتراف لهم بحق المواطنة بشرط خضوعهم للنظام العام للدولة الناشئة (بند ١٦) .

وان لهم النصرة والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. واقر لهم البند (٢٥) حرية العقيدة فنص على (ان لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم) وان يعترفوا للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بالسلطة العليا التنفيذية والقضائية، وان يلتزموا بالنزول على حكمه. وكانت وظيفة الجهاد من اولى تلك الوظائف التي اضطلعت بها الدولة وكان الجهاد الدعوي ان صح ان نطلق عليه هذه التسمية والجهاد القتالي لتثبيت امر الدين الجديد ومجاهدة من يعتدي على امن المسلمين ، وهذه الوظيفة لها اهمية خاصة لاسيما في الاعداد لها والقيام بها ومراتبها وضرورتها وشروطها .ومعلوم ان المعارك لا تكون بفعل الجيش وحده وانما هي حركة الدولة كلها بابعادها الفكرية والسياسية والاقتصادية فالجيش اداة ووسيلة وهو حامل فكر الامة وتوجهاتها وقوتها الاقتصادية وثقلها الاجتماعي. ولابد من التذكير القرأن الكريم لايرد فيه لفظ القتال او الجهاد الا وهو مقرون بعبارة(في سبيل الله) فالغاية من القتال هي (اعلاء كلمة الله) لا السيطرة ولا لمغنم ولا اظهار الشجاعة او الرغبة في الاستعلاء في الارض. وقد وضح هذه الغاية السامية قول النبي (صلى الله عليه وسلم) .(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) قال ذلك لمن ساله عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فأجابه بهذا الحديث[٢٧]. وقد وضعت شروط عديدة وضوابط للقتال فمنع المثلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا قدرة لهم على القتال والرهبان وكذلك حرق الاشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة... وهذا مايفهم من الحديث النبوي.. ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال (اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولاتغلوا ولاتغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد، ولا اصحاب الصوامع...) والنهي عن البدء بالقتال.[٢٨] والجهاد من مظاهر التقوى فقد بصر الخالق سبحانه وتعالى بحكمته وادابه فقال تعالي(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)(البقرة ايه ٢) [٢٩].وهنا تظهر الاية ان الامر بالقتال هو الدفاع عن النفس، وهي اول اية نزلت في القتال في المدينة الا ان ذلك لا يعني عدم الاذن بالقتال لغاية اخرى كقتال اهل البغي في قوله تعالى(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا

فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ الى امر الله)(الحجرات ايه ٤٩) وكذلك القتال للقضاء على الكفر لقوله تعالى:(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق)(التوبة ايه ٩

الجهاد هو ليس من اختصاص احد دون اخر وانما هو فرض على الجميع دون تمييز فهم يتناوبون للخروج في السرايا والغزوات(بند ١٨) كما انها تتبع لغير المسلمين ممن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم على ان يكونوا تبعاً للمسلمين وليسوا في مركز الامارة. (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)(سورة التوبة ايه ٩) ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فأن قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم). وحدد الله الغاية من قتال الكفار في ازالة الشرك وكسر شوكة المشركين حتى لا يستطيعوا ان يفتنوا طائفة من اهل الدين الحق ، وحتى يكون الدين الظاهر في الأرض.(٣٠)

وفي هذه الدولة انتقلت السلطة من سلطة الأفراد والعشائر والطواغيت الى سلطة الدولة فالتشريع يعتمد على الوحي وعلى سيرة الرسول الكريم (البند ١٣) الذي اكد على اقامة العدل بين الناس وهذا هو مبدأ اساسي ووظيفة اساسية تقوم بها دولة الايمان ، واصبح القضاء من اختصاص سلطة مركزية تقوم به بدلا من ترك الافراد يطلبون العدل عن طريق استخدام القوة مباشرة او عن طريق العائلة او العشيرة ، وهذا يعني القضاء على الفوضى الناشئة من العصبية القبلية . وكانت بغية الرسول الكريم هي تحقيق العدالة والقضاء النزيه المستقل لكي لا تحدث الفوضى والاضطراب (بند ٢١) أي تطبيق القانون الاسلامي على الجميع والمسؤولية جماعية لحماية مجتمع المسلمين .

ولم تقتصر الوثيقة على الجهاد والحرب وادارتها وأنما حددت اهم المسائل والتشريعات الجنائية لكي ينال المعتدي جزائه كالقتل العمد وانزال العقوبة بالجاني وتحميله العقوبة لوحده (ولاتزر وازرة وزر اخرى) كما حرم القانون الاسلامي في البنود (٢٢،٢١) من الوثيقة الى كيفية معالجة القضايا الجنائية كالقتل العمد وتطبيق العقوبة بالجاني كما حرمت الوثيقة في بنودها ١٣ و ٣٩ و ٤٢ كل انواع الجرائم في الانفس والاموال ، كما

تقوم الدولة بموجب الوثيقة بمنع الحروب والقتال داخل المدينة لا بل حرم الحرب او القتال حفاظا على السلم الاهلي [٢٩]

كما شملت وظائف الدولة ، وضمن بنود الوثيقة تنظيم شؤون الجيش وامور الجهاد وهذه المهمة تقع على الجميع في المدينة، وقيادتها من اختصاص الرسول وهذه الخدمة تتسع للمسلمين وغيرهم الا ان القيادة والامارة هي بيد المسلمين حصراً (بند ١٨) . فكل من هو موجود في المدينة يخضع لقيادتها وللنظام العام فيها .

والوظيفة السياسية للدولة الناشئة تمثلت بالاعمال التي قام بها الرسول الكريم من خلال ابرام المعاهدات وارسال المبعوثين الى الامصار ، ومخاطبة الملوك والاباطرة من خلال رسل ومراسلات كذلك بعث القضاة الى الامصار . ان هذه الاجراءات وغيرها مما يقع في باب السياسة والسلطان السياسي وينتمي الى طقوسها واكثرها لم يؤخذ به على مقتضى نص قراني ، وانما بتقدير من النبي صلى الله عليه وسلم واجتهاده . كما ان الرسول الكريم لم يقتصر على تبليغ رسالة السماء، وانما انفاذ احكام الدعوة والرسالة باستخدام القوة المادية (الامر القرأني بالقتال) وبأدارة امور المؤمنين برسالته وهذه العوامل وغيرها تفترض السياسة في برنامج الدعوة واداة يتوسل بها سبيل انفاذ اوامرها وتمثلت ايضا الوظيفة السياسية من خلال الحوارات التي اجراها الرسول الكريم مع يهود المدينة والمشركين فقد امل في استمالتهم الى الاسلام، بهدف تأسيس دولة متجانسة الا انهم ابوا الا العداوة.لان الاسلام ضرب مصالحهم الاقتصادية وحرم الربا والخمر ولحم الخنزير. اما الوظيفة الاقتصادية فكانت من الوظائف الثقيلة الوطأة التي تضطلع بها الدولة، لقلة الموارد، وحداثة نشوء الدولة والقسم الاكبر من قاطنيها هم من الفقراء لا سيما المهاجرين الذين تركوا كل مايملكون في مكة فكانت الدولة تعتمد في اقتصادها على الفئ والغنيمة والزكاة في بادئ الامر أي انها قامت بجهود استثنائية لبناء اقتصاد من لاشئ حيث كان عليها ان تجد مصادر اقتصادية لاعالتهم وكان نظام المؤاخاة قد خفف عنهم وطأة المعاناة وشحة الموارد لكن المهاجرين لم يرتضوا لانفسهم البقاء عالة على الانصار لذا كان لابد من موارد يعتاشون منها .[٣١]

وكانت هناك رقابة شديدة على الاسواق في المدينة وفيما بعد في مكة فيما يعرف بالحسبة[*] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بدور المحتسب في صدر الاسلام

(من غش امتي فليس مني)[٣١] وقام الرسول الكريم بتولية سعيد بن العاص على سوق مكة كما ولى عبدالله بن سعيد بن اصيحة بن العاص على سوق المدينة للاشراف على الاسواق في هاتين المدينتين والاشراف على التجارة والصناعة فيهما ومراقبة البيع والشراء وفقا للشريعة واحكامها وكذلك مراقبة المعاملات المنكرة كالبيوع الفاسدة والربا والشركة الفاسدة وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات وكذلك مراقبة الاوزان والمكاييل والاسعار.

وخلاصة القول لقد تمكن محمد صلى الله عليه وسلم من حمل ونشر دين عظيم جديد وتثبته من جهة وتشديد ارتباطه بعصره من جهة اخرى . وتكوين دولة عظيمة روحية مبنية على اسس اخلاقية واستطاع ان يرفع في ان معا مستوى الحياة الاخلاقية والمستوى الفكري للناس ومع تقاليدهم وبتفهم وحس تنظيمي عميق من شأنهما ان يضمنا لها السلامة والفوز، ان ما ندرك وجوده لدى محمد صلى الله عليه وسلم من رفعه في التفكير ومن قوة في التغلب على العقبات البشرية وعلى العوائق الذاتية لا يمكن الا ان يترك تاثيراً بالغاً في النفوس وينزع منها الاكبار والاجلال.[٣٢]

وختاماً: يحق لنا كأمة اسلامية ان نشعر بالفخر والاعتزاز بالوثيقة النبوية التي كانت بحق اول مدونة دستورية وبالدولة او الوحدة السياسية الاسلامية المكونة من المهاجرين والانصار فضلاً عن كل اولئك الذين ابدوا استعداداً للمشاركة في تكاليف المسلمين وتحت قيادتهم. هذه الوثيقة التي عدت اول دستور مكتوب صادر من رئيس دولة، وافقت عليه الامة. وهو متميز عن القوانين الاعتيادية هو دستور دولة المدينة النبوية الذي بين حقوق الدولة على الافراد وحقوق الافراد على الدولة .

انها دولة فكرية تقوم على العقيدة وجعلت المؤمنين اساسها وجوهرها لاشاعة العقيدة وتنفيذ الشريعة .

المصادر

١ - د. برهان غليون – نقد السياسة الدولة والدين .ط٢ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت– لبنان – ١٩٩٣م) ص٥٤–٥٥ .

٢ - د. محمود اسماعيل – سوسيولوجيا الفكر الاسلامي .ط٣ (مكتبة مدبولي. القاهرة –١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م) ص٢٩ كذلك للمؤلف نفسه علم التأريخ عند العرب (بيروت ١٩٦٠م) ص١٣ وللاستزادة

يراجع جورجي زيدان – تاريخ العرب قبل الاسلام(نقلا عن محمود اسماعيل – سوسيولوجيا الفكر الاسلامي.

٣ - د. محمود اسماعيل . سوسيولوجيا الفكر الاسلامي – مصدر سابق ص٤٢.

٤ - سورة النمل / اية ٢٣.

٥ - يمكن الرجوع الى محمد عبد القادر بافقيه- تاريخ الشرق القديم (القاهرة – ١٩٦٣) ص١٧٥ (نقلا عن د. محمود اسماعيل . سوسيولوجيا الفكر الاسلامي).

٦ - توماس هويز- الفياثان- الاصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة .ط١ ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب (ابوظبي ، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث – كلمة . ٢٠١١م) ص٢١٨.

٧ - المصدر سابق ص٢١٩.

٨ - هارولد لاسكي – الدولة في النظرية والتطبيق . ترجمة احمد محمد غنيم وكامل زهيري- دار النديم- القاهرة) ص٤٩.

٩ - الشيخ صفي الرحمن المباركفوري – الرحيق المختوم- (مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة المكرمة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) ص١٣٦.(من كتب السيرة النبوية لابن اسحق ، والسيرة النبوية لابن هشام)

١٠ -سيرة النبي لابي محمد عبد الملك بن هشام مراجعة محي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع ، القاهرة ، ٢٠٠٥ . (مما يشار اليه ا ناول من كتب عن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم هو ابن هشام بعد ان فقد السيرة النبوية التي كتبها ابن اسحق لولا ان ابن هشام قد دون منها في كتابه اكثرها كما اخذ عن ابن اسحق كل من الطبري والواقدي) . سيرة النبي لابن هشام . ص ٧ .

١١ -د. مصطفى عبد العاطي غنيمي – السيرة النبوية (مكتبة مدبولي – القاهرة ٢٠٠٥) ص١٩٠.

١٢ -الشيخ قرني طلبه بدوي – جواهر السيرة النبوية -ط٢(صبح بالازهر ١٩٧١) ص٦٤.

١٣ -للاستزادة يمكن الرجوع الى زاد المعاد ٥٦/٢ وفقه السيرة ص ١٤٠-١٤١.

١٤ -عبد الاله بلقزيز- تكوين المجال السياسي الاسلامي – النبوي والسياسي ط١ (مركز دراسات الوحدة العربية – كانون الاول / ديسمبر ٢٠٠٥م) ص٤٠-٤١.

١٥ -كلود كاهن – الاسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطة العثمانية ط١ ترجمة: حسين جواد قبيسي . مراجعة د. علي نجيب ابراهيم -(مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان. ايار / مايو ٢٠١٠م) ص٣٣.

١٦ -د. عبد الاله بلقزيز – تكوين المجال السياسي الاسلامي مصدر سابق ص٤٠-٤١.

١٧ -المصدر سابق ص٤١.

١٨ -مارسيل غوشيه – الدين في الديمقراطية ط١ ترجمة د. شفيق محسن . مراجعة د. بسام بركة (المنظمة العربية للترجمة بيروت تشرين الثاني / نوفمبر – ٢٠٠٧م) ص٨-٩ .

١٩ -د. وائل حلاق . تاريخ النظريات الفقهية في الاسلام. ترجمة ا.د. احمد موصللي ، مراجعة د. فهد بن عبد الرحمن الحمودي (دار المدار – بيروت ٢٠٠٧م) ص٣٠-٣١.

٢٠ -كلود كاهن – الاسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطة العثمانية – مصدر سابق ص٣٨.

٢١ -كلودكاهن المصدر سابق ص٣٨.

٢٢ -بلقزيز تكوين المجال السياسي – مصدر سابق ص٤١.

٢٣ -د. منير حميد البياتي – الصحيفة النبوية – مبادرة رائدة للدستور المدون (كلية الاداب – جامعة بغداد – العدد ٢٥ شباط ١٩٧٩م) ص٥٢٣.

٢٤ -الشيخ محمد علي التسخيري – الدولة الاسلامي – دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية ، مجلة التوحيد ، العدد الاول ، السنة الاولى ، رجب ١٤١٤ هـ كانون الثاني ١٩٩٤ م

٢٥ -د. منير حميد البياتي – الصحيفة النبوية . مصدر سابق ص٥٢٤.

- غزا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ست وعشرين غزوة قادها بنفسه خلال وجوده في المدينة المنورة.

٢٦ -د. عبد الحميد الجياش – الوسيط في احكام القرأن الكريم –ط١(دار النهضة العربية – بيروت– مكتبة الزهراء للنشر والتوزيع – البيضاء ليبيا ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م) ص٧١–٧٢.

٢٧ -د. عبد الحميد الجياش المصدر سبق ذكره ص٧٢

٢٨ -د. عبد الحميد الجياش المصدر سابق ص٧٣.

٢٩ -د. مصطفى عبد العاطي غنيمي – السيرة النبوية –مصدر سابق ص١٨٤–١٨٥

٣٠ -محمد بن محمد بن احمد القريشي – معالم القربة في احكام الحسبة – تحقيق: د. محمد شعبان وصديق احمد عيسى المطبعي (الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة – ١٩٧٦م) ص٣٦.

٣١ -محمد بن محمد بن احمد القريشي – معالم القربة في احكام الحسبة – مصدر سابق ص٣٦.

*الحسبة : والقائم بها يسمى المحتسب وهي وظيفة جليلة رفيعة القدر والشأن وموضوعها التحدث في الامر والنهي والتحدث عن المعايش والصناع والاخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته وتسند وظيفة الحسبه الى اعيان المسلمين المعدلين، لانها خدمة دينية وللمحتسب الاشراف على المهن والحرف. والحسبة على الموازين والمكاييل والحسبة على الحمامات والعبيد والجواري، ومؤدبي الصبيان و الصيارفه والوراقين يراجع في ذالك (احياء علوم الدين للغزالي والموسوعة العربية للريحاني والحسبة في الاسلام لاحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية – السنة المحمدية القاهرة ١٩٦١م.

٣٢– كلود كاهن – الاسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة . مصدر سابق ص٣٦–٣٧.